لهم على الذخيرة والاسلحة ، فتمكنوا خلال فترة قصيرة من تحقيق العديد من العمليات الناجحة ضد العدو دون ان يتكبدوا خسائر تذكر ، كما قام بنفسه وبمساعدة ابناء المدينة العاملين في مراكز الجيش البريطاني بالدخول الى تلك المراكز ودراستها عن كثب مما مكنه والمناضلين من تحقيق مكاسب هامة يوم انسحاب الانكليز من المدينة كما سيأتي .

حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر ١٦ نيسان ١٩٤٨ تم انسحاب الانكليز(٨) من المدينة وفي نفس الوقت قاد احسان المناضلين فهاجموا المراكز(٩) التي أخلاها الانكليز وفي أقل من ساعة واحدة كانوا قد احتلوها ودخلوا بمعركة مع المواقع الامامية لليهود واستطاعوا اجبارهم على التراجع لمواقع خلفية بعد تكبيدهم خسائر فادحة(١٠). كان ذلك اليوم عرس صفد الحقيقي رغم غدر الانكليز لهم(١١). وكانت زغاريد النساء تعلو اصوات الرصاص مشجعة للمناضلين وفرحة بالنصر الذي حققوه وزاد تعلق ابناء المدينة بقائدهم احسان . مع بزوغ فجر اليوم التالي (١٧ نيسان) كانت سرية من مقر قيادة جيش الانقاذ بقيادة الملازم عبد الحميد السراج تدخل مدينة صفد ولحقها فصيلان من سرية ادلب يقودهما الملازم هشام العظم(١٢) وسرية اردنية(١٣) يقودها الرئيس ساري فنيش(١٤) ويعاونه الضابط اميل جميعان ، دخلت هذه القوات المدينة بأمر من الشيشكلي ومعها أمر منه بتعيين الرئيس ساري فنيش قائدا للحامية ومنحه سلطة اعلان الاحكام العرفية كما عين اميل جميعان مساعدا له .

وجد احسان كملماز ان الفرصة مؤاتية مع وصول تلك القوات لاقتحام الحي اليهودي وانهاء الوضع في المدينة قبل ان يسترد العدو أنفاسه وتصله النجدات بيد أن القائد الجديد عارض الامر بشدة مدعيا ان مهمته مع قواته دفاعية لا اكثر .

في ١٨ نيسان وصل اليهود نجدات من البالماخ ووقعت في نفس اليوم اشتباكات بين الطرفين ولاول مرة راح اليهود يقذفون المدينة العربية بقنابل الهاون وراجمات الالغام(١٥). وشعر شباب المدينة ان مبدأ الدفاع المعتمد من القيادة من شأنه ان يقتل حماس المناضلين ويقلب الوضع لصالح العدو نتيجة التعزيزات التي كانت تصله تباعا فالتفوا حول قائدهم المحبوب احسان وراحوا يحثونه على متابعة القتال ولم يكن احسان اقل منهم حماسا للامر فقاد فريقا منهم وهاجموا موضعا للحي اليهودي وعلى اثر ذلك اصطدم احسان بساري فنيش بمشادة كلامية(١٦) انتهت بمغادرة احسان المدينة .

ضمد ابناء المدينة جراحهم وحاولوا الالتفاف حول ساري الا ان نفسه كانت قد طفحت بالحقد والكراهية فراح يعاملهم اسوأ معاملة(١٧).

في ١ ايار وبعد وصول النجدات لليهود بأعداد كبيرة بعد سقوط حيفا في ٢٤ نيسان وبعض القرى القريبة من صفد(١٨) هاجم اليهود قريتي بيريا وعين الزيتون(١٩) وتمكنوا من احتلالهما ودمروا عين الزيتون تدميرا تاما . وعبثا حاول الصفديون اقناع ساري بنجدة القريتين. وباحتلال القريتين المذكورتين تمكن اليهود من محاصرة المدينة من جميع الاطراف باستثناء الطريق الجنوبي الغربي للمدينة . وفي ٥ و ٦ ايار ازداد تدفق قوات العدو على صفد سالكين طريق الجاعونة ــ صفد الرئيسي والترابي خلف جبل كنعان وأقاموا اتصالا مع الحي اليهودي في المدينة عن طريق قرية عين الزيتون فأصبحت المدينة تحت سيطرتهم وراحوا يقذفونها بأسلحتهم المختلفة بكثافة .

سافر وفد من رجال المدينة على اثر ذلك الى دمشق لمقابلة المسؤولين واطلاعهم على الوضع في المدينة(٢٠). وفي ٧ ايار قدم الشيشكلي الى صفد وبعد تفقده الوضع عاد الى مقر قيادته في الصفصاف(٢١) وراحت مدفعيته تقصف الحي اليهودي . وكرر القصف في اليوم التالي (٨ أيار) كما اشتبك في اليوم ذاته المناضلون واليهود بمعارك عنيفة صمد فيها العرب ونفد الكثير من ذخيرتهم فراحوا ينتظرون رجوع الوفد الذي سافر لدمشق ليأتي بالنجدة والعتاد . وفيما كان الوفد في دمشق يصف الى رئيس اللجنة العسكرية الوضع في دمشق دخل عليه الشيشكلي(٢٢) الذي أكد للرئيس كل ما قاله رجال الوفد وطلب المساعدة غير ان الرئيس اجاب «العين بصيرة واليد قصيرة». عندئذ سافر السيد زكي قدوره الى عمان وبصحبته اميل جميعان(٢٣) في محاولة للحصول على المساعدة من هناك وقابل الملك فرد الاخير قائلا للرئيس قدوره « لم لا تذهب للقوتلي الذي دخل المعركة قبل ان يكون مستعدا لها ؟ » ولما حاول هذا اقناع الملك بضرورة انقاذ صفد اعتذر الملك قائلا انه لا